المقتبس

الجزء التاسع من المجلد الثاني

رمضان سنة ١٣٢٥ الموافق اكتوبر (تشرين أول) سنة ١٩٠٧

صدور المشارقة والمغاربة

ابن زيدون

اذا انتشرت الآداب والعلوم في أمة وكادت تعم افرادها كافة يأتي من بين اولئك المتعلمين الكثار صفوة من الرجال منهم ينشأ النوابغ لان ارتقاء العلوم في الخصوص يكون على نسبة ارتقائها في العموم . وصاحب الترجمة هو احد افراد الاندلس المعدودين زكا اصله وسما عقله ورجح بيانه وانفتق لسانه وبعد صيته بين حملة رايات القريض وصوّاغ عقود الانشاء جمع الى تليد مجده طريفًا والى آدابه الوهبية آدابًا كسبية وقد عُدَّ في الطبقة العالية بين شعراء الاندلس ونال من المنثور حظًا كبيرًا فهو على التحقيق كما وصفه احد الادباء « بحتري المغرب » لحسن ديباجته وسهولة معانيه ومتانة تراكيبه تقرأ في منظومه العواطف في ابهى مظاهرها وتتجلى لك اغراضه في اسمى معانيها فشعره جعبة الادب البارع ودرج الذهب الرائع ومثال الظرف والرقة وعنوان الانسجام والاجادة حتى قال احدهم فيه: من لبس البياض وتختم بالعقيق وقرأ لابي عمرو ونفقه للشافعي وروى شعر ابن زيدون فقد استكمل الظرف كله

وصفه صاحب القلائد بقوله : زعيم الفئة القرطبية ونشأة الدولة الجمهورية الذي بهر بنظامه وظهر كالبدر ليلة تمامه فجاء من القول بسحر وقلده ابهى نحر لم يصرفه الا بين ريحان وراح ولم يطلعه الا في سماء مؤانسات وافراح ولا تعدى به الرؤساء والملوك ولا تروى منه

الا حظوة كالشمس عند الدلوك فشرف بضائعه وارهف بدائعه وراقه وكلفت به تلك الدولة حتى صار ملهج لسانها وحلى من عينها مكان انسانها .

وفي بعض المجاميع ان الوزير ابا بكر بن عمار وابا الوليد بن زيدون كانا في حسن الشعر فرسي رهان ورضيعي لبان وقد ذكرا كثير الأدباء بالاندلس انهما اشعر اهل عصرهما هذا ما ذكره العماد الكاتب وذكر له القصيدة التي اولها * اما في نسيم الريح عرف يعرف * والرسالة التي كتبها لاستاذه ابن جهور يستعطفه بها وقد اعتقله لما سمع انه مال الى المعتضد عباد وذكر لابن عمار الرائية التي استوزره لسببها ابن عباد وهي ادر الزجاجة الخ .

ولقد كان ابن زيدون آية في طلاقة لسانه كما كان غاية في حسن بيانه ويحكى ان ابنته توفيت وبعد الفراغ من دفنها وقف للناس عند منصرفهم من الجنازة ليتشكر لهم فقيل انه ما اعاد في ذلك الوقت عبارة قالها لاحد قال الصفدي :وهذا من التوسع في العبارة والقدرة على التفنن في اساليب الكلام وهو امر صعب الى الغاية وارى انه اشق مما يحكى عن واصل بن عطاء انه ما سمعت منه راء لانه كان يلثغ بحرف الراء لثغة قبيحة والسبب في تهوين هذا الامر وعدم تهويله ان واصل بن عطاء كان يعدل الى ما يرادف تلك الكلمة مما ليس فيه راء وهذا كثير في كلام العرب فاذا اراد العدول عن لفظ فرس قال جواد او سابح او صافن او العدول عن ريح قال قذاة او صعدة او يزفى او غير ذلك او العدول عن لفظ صارم قال حسام او لهذم او غير ذلك واما ابن زيدون فاقول في حقه اقل ما كان في تلك الجنازة وهو وزير الف رئيس ممن يتعين عليه ان يتشكر له و يضطر الى ذلك فيحتاج في هذا المقام الى الف عبارة مضمونها الشكر وهذا كثير الى الغاية لاسيما من محزون فقد قطعة من كبده .

ولكنه صوب العقول اذا انبرت سجائب منه اعقبت بسحاب

وقال ابن بسام في الذخيرة في ترجمة ذي الوزارتين الكاتب ابي الوليد ابن زيدون وصاحب الذخيرة خير من يصوّر الرجال ومناشئهم واحوالهم :

كان ابو الوليد غاية منثور ومنظوم . وخاتمة شعراء مخزوم . احد من جر الايام جرا . وفات الانام طرا . وصرف السلطان نفعاً وضرّا . ووسع البيان نظماً ونثراً . الى ادب ليس للجدول تدفقه . ولا للبدر تألقه . وشعر ليس للسحر بيانه . ولا للنجوم الزهر اقترانه . وحظ من النثر غريب المباني . شعري الالفاظ والمعاني . اخبرني غير واحد من وزراء اشبيلية قال : لما خلص ابن عبد البر من يد عباد . خلص الفرزدق من يد زياد . بقيت حضرته من اهل هذا الشان . تثري من ظهر الافوان . وتخي من صدر الجبان . فهبّ باستخلاف ابي محمد

ابن الباجي المشهور امره الآتي في القسم الثاني من هذا الديوان ذكره فكان ابا الوليد غص بذلك وواطأ ابا محمد بن الجد على الاشارة بالاستغناء عما هنالك فكانت الكتب تنفذ من انشاء ابي الوليد الى شرق الاندلس فيقال : تأتي من اشبيلية كتب هي بالنظم اشبه منه بالنثر . وقد اجرى ذكره ابو مروان بن حيان في وصف من كان اصطنع ابن جهور من رجال دولته فقال : ونوّه بفتى الادب وعميد الظرف الشاعر البديع الوصف ابي الوليد احمد بن زيدون ذي الأبوّة النبيهة بقرطبة والوسامة والدراية وحلاوة المنظوم والسلاطة وقوة العارضة والافنان في المعرفة وقدمه الى النظر على اهل الذمة لبعض الامور المعترضة وقصره بعد على مكانه من الخاصة والسفارة بينه وبين الرؤساء فاحسن التصرف في ذلك وغلب على قلوب الملوك . قال ابو مروان وكان ابوالوليد من ابناء وجوه الفقهاء بقرطبة في ايام الجماعة والفتنة وبرع ادبه وجاد شعره وعلا شأنه وانطلق لسانه فذهب به العجب كل مذهب وهوّن عنده كل مطلب وكان علقه من عبدالله بن احمد احد حكام قرطبة ما اداه الى السجن فالقى نفسه يومئذ على ابي الوليد بن جهور في حياة والده ابي الحزم فشفع له وانتشله من نكبته وصيره في صنائعه ولما ولي الامر بعد والده نوّه به واسنى خطته وقدّمه في الذين اصطنع لدولته واوسع رايته وجاله كرامته ولم يقنعه ذلك فيما زعموا فاتفق ان عنّ له مطلب بحضرة ادريس الحمي بمالقة فاطال الثواء هنالك واقترب من ادريس وخف على نفسه واحضره مجالس أنسه فعنّ عليه ابن جهور وصرفه في السفارة بينه وبين امراء الاندلس فيما يجري بينهم من التراسل والمداخلة فاستقل بذلك بفضل ما أوتيه من العارضة بالنسب والجاه والمنفعة ولم يغنه ذلك عن التهافت في الترقي لبعد الهمة فهوى عما قليل الى عباد صاحب اشبيلية فهاجر عن وطنه اليه ونزل في كنفه وصار من خواصه وصحابته يجالسه في خلواته ويسفر له في مهم رسائله على حال من التوسعة وكان ذهابه لعباد سنة احدى واربعين واربعمائة .

قال ابو حسن : فاما سعة ذرعه وتدفق طبعه وغزارة بيانه ورقة حاشية لسانه فالصبح الذي لا ينكر ولا يرد والرمل الذي لا يحصر ولا يعد اخبرني من لا ادفع خبره من وزراء إشبيلية قال : لعهدي بابي الوليد قائمًا على جنازة بعض حرمه والناس يعزونه على اختلاف طبقاتهم فما سمع يجيب احدًا بمثل ما اجاب به غيره لسعة ميدانه وحفو رجنانه . وقد اخرجت من اشعاره التي هي حجول وغرر ونوادر اخباره التي هي مآثر وأثر ورسائله التي اخرست السنة الحفل (ما ستقرؤه) . ثم ذكر له ما يتعلق بذلك في نحو خمسين صفحة ختمها بفصل يتعلق بذكر وفاته قال : ومما يتعلق بذكر وفاة ذي الوزارتين فصل من تاريخ الشيخ ابي مروان

ابن حيان رأيت اثباته لنبل مساقه وحسن انسياقه يقول فيه توفي يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة اثنتين وستين واربعمائة سار الحاجب سراج الدولة عباد بن محمد الى اشبيلية الخضرة الاثيرة لمطالعتها وتأنيس اهلها من وحشة خامرت عامتهم من اجل عدوان رجل منهم على يهودي زعم انه سب الشريعة فبطش به المسلم وسط السوق وجرده وحرك عليه العامة فقبض عليه صاحب المدينة عبد الله بن سلام واعتقله فكان لعامة الناس في انكار حبسه كلام واكثار فخاطب السلطان بقرطبة بما كان منه ويستأمره في شأنه فعجل انفاذ ولده الحاجب سراج الدولة الى اشبيلية في جيش كثيف من نخبة غلمانه ووجوه رجاله لمشارفة القصة والاحتياط على العامة وانفذ معه ذا الوزارتين ابا الوليد بن زيدون احد الثلاثة كابري وزرائه المثناة وزارتهم مع الحاجب على بقية وعك كان متألما منه ولم يعذره في التوقف من اجلها فمضى لطيته مسوقا الى منيته وخلف ولده ابا بكر النفذ الوزارة المرتسم بالكتابة وراءه سادا مكانه بالحضرة فأقر فيها اياما ثم أمر بالمسير وراء والده لامر كلفه فعجل بالانطلاق له فمضى غداة يوم السبت من ثمان خلون من المحرم سنة ثلاث وستين فخلت منهم منازلهم بقرطبة وصيرت على سواهم فتحدث الناس بنبو مكان الاديب ابن زيدون لدى السلطان وبما جرى من الخاطبين لديه ابن مرتين وابن عمار في ابعاده وابعاد ابنه واحتوائهما على خاصة السلطان وتدبير دولته ولم يطل الامد بابن زيدون بعد لحاق ابنه به ووجدانه اياه متزيدا في مرضه نازحا عن الفه على جهد في استدعائها على انتهاء المدة وانتهاك القوة فاستقر به وجعه الى ان قضى نحبه وهلك بدار هجرته اشبيلية صدر رجب سنة ثلاث وستين فدفن فيها مشهودا مفتقدا واحتوى تربها عليه فيابعد ما بين قبره وقبر ابنه لدينا رحمة الله عليهما .

ولقد اتصل خبر هلكه بمشيرته اهل قرطبة فتنازعوه وسيئوا لفقده وحزنوا عليه اذ كان منهم متعصبا لهم هاويا اليهم حدبا عليهم والبقاء لمن تفرد به وحده . وقد عزى اخوانه عنه امتداد بقاء فتاه الندب ابي بكر ولده بعده سادا ثم ساميا مسماه غائظا عداه عاطيا منتهاه مع شماخة ودماثة وحصافة ونزاهة ومعرفة ووفور حظ من ادب بلاغة وكتابة وشركة في التعاليم المعلية واشتداد في رعاية منقادي الذمة لم يفقد اخوان ابيه معها الا عينه اه

اما شعره فمعروف سائر على الالسن . وقد افضنا في الكلام على ديوانه في غير هذا الموضع من هذا الجزء . واما نثره فقليل في الايدي لم يشتهر منه غير رسالتين مفردتين لم ينسج ناسج على منوالهما احداهما رسالته في التنكيت على احد وزراء عصره وهي التي شرحها الاديب المشهور ابن نباتة السعدي . والثانية رسالته التي كتبها وهو في الحبس يستعطف

بها امير مصره وقد شرحها صلاح الدين الصفدي (وطبع هذان الشرحان في الديار الاوربية) ومتى ساعدنا الوقت نشرناهما لكثرة ما فيهما من التنبيه للامور التاريخية التي يجدر بكل اديب الوقوف عليها وقد احببنا ان ننشر له بعض الرسائل التي ذكرها صاحب الذخيرة نقرأوها في باب الصحف المنسية .

ثروة العرب

قد يظن من يطالع تاريخ الاسلام بدون ان يعمل نظره معملة ان ما يراه في تضاعيف سطوره من اخبار الثروة وطول ارقامها ونثاني الباحثين عنها والمتفانين في نيلها ضرباً من ضروب الغلو ساق اليه تسرع المؤلف او اختلاق منه ليجعل لمن يتكلم عنه وقعاً في النفوس ويجب اليها مطالعة كتابه خصوصاً والبشر في كل دور من ادوارهم كادوا يجعلون الدينار معبودهم .

لولم يرد احصاء الثروة الاسلامية في كتب الثقات ما كان كلام بعضهم عنها بحيث يصح نقله . فقد لقي الرسول عليه الصلاة والسلام ربه وحاله من الزهد في المال والرفاهية حاله واستن معظم اصحابه بسنته وكان من امر ابي بكر وعمر وعلي من الزهد في المال ماشاع ذكره وظهر اثره وتحدث به السمار في الامصار . قال (١) معاوية وقد ذكر المال « اما ابو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده واما عمر فارادته الدنيا ولم يردها واما عثمان فاصاب منها واما نحن فتمرغنا فيها ظهراً لبطن » .

على هذا النحو كان التأثل والارتياش راح الخليفة الاول واسباب الفتوح ممدودة ولم يصل قواده الى اقصى جزيرة العرب ليفتحوا بلاداً عامرة كفارس ومصر والشام كانت خزانة الثروة والاموال بما كان فيها من حضارة قديمة وانما تهيأت الفتوحات وكثرت الغنائم ايام الخليفة الثاني ففتح الله للمسلمين تلك البلاد الغنية فعف عنها هو ومعظم اصحابه وكان يصادر من عماله من يجمع مالاً من غير حله . اما الخليفة الثالث فاخذ نصيباً من الدنيا هو وعماله وربما اغرق دولاء في نيلها بطرق لم تعهد زمن الخليفتين السالفين لان معظمهم من انسبائه

(١) اعتمدت في هذه الرسالة على مختصر تاريخ الاسلام للحافظ الذهبي وهو مخطوط كبير الحجم غزير الفائدة وقد جعلت عبارته وسط علامتين اما سائر هذه الاخبار فمرجعه كتب التاريخ .